[١]

تمهيد

عن مخطط التفتيت

قبل أكثر من خمسين عاما -فى أربعينيات القرن العشرين- نشرت مجلة وزارة الدفاع الأمريكية -«البنتاجون»-Executivie Intelligence researchproject مخطط المستشرق الصهيونى «برناردلويس»، لتفتيت العالم الإسلامى -من باكستان إلى المغرب- على أسس عرقية و«إثنية» ودينية ومذهبية، وذلك حتى يزداد التشرذم فى هذا العالم- المتشرذم أصلا- فتضاف إلى كياناته القطرية- التى تزيد على الخمسين- كيانات جديدة تزيد على الثلاثين.. لتتحول كل تلك الكيانات- حسب تعبير «برناردلويس» إلى «**برج ورقى، ومجتمعات فسيفسائية.. أو مجتمعات الموزايك** Mosaic Society.. **فيتحقق الأمن لإسرائيل لنصف قرن على الأقل**»!..

ولقد تحدث هذا المخطط عن تقسيم العراق إلى دويلات ثلاث:

١- دولة كردية سُنِّيَّة فى الشمال..

٢- ودولة سُنِّيَّة عربية فى الوسط..

٣- ودولة شيعية عربية فى الجنوب..

- وهو ما يجرى تنفيذه اليوم على أرض العراق-

وتحدث هذا المخطط عن تقسيم السودان إلى:

١- دولة زنجية مستقلة فى الجنوب..

٢- ودولة عربية فى الشمال..

- وهو ما يجرى تنفيذه اليوم على أرض السودان-

وتحدث «برناردلويس» عن تقسيم لبنان إلى خمس دويلات:

١- دويلة مسيحية..

٢- ودويلة شيعية..

٣- ودويلة سنية..

٤- ودويلة درزية..

٥- ودويلة علوية..

أما مصر فلقد خطط «لويس» تقسيمها إلى دولتين على الأقل!:

١- واحدة إسلامية.

٢- والثانية قبطية- فى الجنوب- الصعيد-[1]..

---

(١) محمد السماك (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ١٣١-١٣٣- ١٤٣ طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م.

وانظر كتابنا: (الإسلام والتعددية: الاختلاف والتنوع فى إطار الوحدة) ص٢٥٧- ٢٧٣. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م. وكتابنا (الأقليات الدينية والقومية: تنوع ووحدة؟ أم تفتيت واختراق؟) ص٢٤-٤٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨.

obeikandl.com

وبعد سنوات من نشر مجلة «البنتاجون» لهذا المخطط بدأ تنفيذه، فى حقبة الخمسينيات، فشرعت إسرائيل فى العمل على **«تثبيت وتقوية الميول الانعزالية للأقليات فى العالم العربى.. وتحريك هذه الأقليات، لتدمير المجتمعات المستقرة، وإذكاء النار فى مشاعر الأقليات المسيحية فى المنطقة، وتوجيهها نحو المطالبة بالاستقلال..»**- كما جاء بالحرف فى عبارات «بن جوريون»- بمذكرات «موشى شاريت»[1]..

***

وفيما يتعلق بمصر -التى نخصها بهذه الصفحات- ظهرت فى ذلك التاريخ- النصف الأول من الخمسينيات- «جماعة الأمة القبطية»- التى تدعو إلى «تحرير مصر من الإسلام والمسلمين»!..

وبدأت موجات الهجرات القبطية إلى الخارج -وبالذات إلى أمريكا وكندا وأستراليا-.. موجة عقب قانون الإصلاح الزراعى بمصر سنة ١٩٥٢م.. وثانية بعد تمصير الشركات الأجنبية سنة ١٩٥٧م- عقب هزيمة العدوان الثلاثى فى سنة ١٩٥٦.. وثالثة عقب قوانين التأميم سنة ١٩٦١م.. ولقد غلب على هذه الهجرات روح الثأر والانتقام من مصر ثورة يوليو، التى حرمت هؤلاء المهاجرين من الاستغلال الإقطاعى.. ومن سيطرتهم- مع أنهم أقلية- على الشركات فى حقبة سيطرة رأس المال الأجنبى المتحالف مع الاستعمار.. فالتقطت أجهزة الاستخبارات

(١) الدكتور سعد الدين إبراهيم (الملل والنحل والأعراق: هموم الأقليات فى العالم العربى) ص٧٤٠-٧٤٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.

المعاديـة، والدوائر الصهيونية كـثيرين من هؤلاء المهاجرين.. وتكونت -منذ ذلك التـاريخ- بدايات التنظيمـات القبطية المعـادية لوحدة مـصر الوطنية ولعروبتها وهويتها الحضارية الإسلامية.

● فلما جاءت حقبة الثمـانينيات- من القرن العشرين- ومع النجاح الذى حققه مخطط الـتفتيت على جبهة موارنة «المارونيـة السياسية» فى لبنان- أولئك الذين قالوا: «أمنـا فرنسا، ونحن غرب، نعـادى العروبة والإسلام»! -تصاعـدت آمال المخطط الإمبريالى الصهيـونى فى تفتيت مصر..

فعـلاوة على مشاركة عـدد من الأقباط فى صفـوف الموارنة بالحرب الأهلية اللبنانية!- وجدنا «وثيـقة استراتيجية إسـرائيل فى الثمانينيات»- التى نشرتها مجلة المنظمة الصهـيونية (الاتجاهات) «كيفونيم» Kivanim فى ١٤ فبـراير سنة ١٩٨٢م- تقول: «**إن مـصر المفككة والمنقـسمـة إلى عناصر سلطوية كـثيرة- وليس على غرار ما هى اليـوم- لا تشكل أى تهديد لإسرائيل، وإنما ضـمانة للأمن والسلام لوقت طويل. وهـذا فى متناول أيدينا اليوم..**»!

بل وتحدثت هذه الوثيـقة عن أن تفتـيت مصر هو مـفتاح تفـتيت كل بلاد العروبة والإسلام، فـقالت -بالحرف-:«إن دولا مثل ليبـيا والسودان والدول الأبعد منهما لن تبـقى طويلا على صورتها الحالية، بل ستقـتفى أثر مصر فى انهيـارها وتفتـتها، فـمتى تفـتتت مصـر تفتت البـاقون. إن رؤية دولة قـبطية

مسيحية فى صعيد مصر، إلى جانب عدد من الدول ذات سلطة أقلية - مصرية، لا سلطة مركزية كما هو الوضع الآن، هو مفتاح هذا التطور التاريخى الذى أخرته معاهدة السلام، لكنه لا يبدو مستبعداً فى المدى الطويل..»![1]

***

فنحن، إذن، أمام مخطط معلن «لانهيار مصر وتفتيتها»- ولسنا أمام «مؤامرة سرية» ولا «هوس بنظرية وذهنية المؤامرة»-. . وفى ضوء هذا المخطط علينا أن نرى «خارطة» كل ما يقال ويطبق اليوم باسم الأقليات!.

● من ذلك الذى أعلن -منذ سنوات- عن قيام حكومة قبطية فى المنفى -فى ألمانيا- كبالون اختبار، وسابقة وضعت «العنوان» و«الهدف» فى دوائر الإعلام!. . ولقد جرت الاستهانة بهذا الأمر يومئذ، وقيل: إن صاحب هذا الإعلان مجرد «مجنون»، وهو الوصف التبريرى الذى سبق وأطلقته إسرائيل على من قام بجريمة حرق المسجد الأقصى سنة ١٩٦٩م!. .

● إلى هؤلاء الذين يسعون -بحماسة يسمونها «روح الاستشهاد»!- لإحياء اللغة القبطية، لا كلغة آثارية وتاريخية لأهل الاختصاص، وإنما لتحل محل اللغة القومية -العربية-!. . حتى ليصل الأمر إلى حد أن

---

(١) (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ١٤٠-١٤٤.

يعلن الرجل الثانى فى الكنيسة الأرثوذكسية- الأنبا «غريغوريوس»- فى صحيفة «وطنى» ٣٠ يوليو سنة ٢٠٠٠م- «**أن اللغة القبطية هى لغتنا بوصفنا قبطًا.. وهى تراث الماضى ورباط الحاضر!! وهى من أعظم الدعائم التى يستند إليها كيان الشعب المسيحى، وأن إهمالنا للغة القبطية كان من أكبر العوامل التى عمل بها المستعمر الدخيل فقضى على الفوارق التى كان لا بد من بقائها لتكون سوراً يحمى كياننا من الانصداع ووحدتنا من التفكك**». . فهم يحيون اللغة القبطية لتكون سوراً بين «الشعب المسيحى» وبين «المستعمر الدخيل»- أى المسلمين المصريين!!. . ويصاحب هذه الجهود- التى تُبرز ويغُضّ عنها الطرف- التحول فى أسماء المواليد عن الأسماء المصرية والعربية إلى الأسماء الأوربية الغربية. . فبدلا من ميخائيل يسمى «مايكل»!. . وبدلا من بطرس يسمى «بيتر»!. . وبدلا من مريم تسمى «ميرى»!. . حتى أصبح اسم مريم لا يسمى به غير المسلمين!. . بل وشيوع عبارات من مثل «الشعب القبطى» و«الشعب المسيحى» و«الطائفة» بدلا من «الشعب المصرى»!. .

● إلى تزايد نفوذ أقباط المهجر على كنيستهم الأرثوذكسية. . فتعداد هؤلاء المهاجرين، وإمكاناتهم المادية والأدبية، ونفوذهم وحركيتهم، وعلاقاتهم مع ولائهم للبلاد التى يحملون جنسيتها، وتسخيرهم أحيانا لخدمة المصالح الاستعمارية لتلك البلاد -وخاصة فى أمريكا-. . وكذلك زيادة الفروع الخارجية لهذه الكنيسة، ومن ثَمَّ ثقل ونفوذ هذه الفروع. . كل هذا الجديد قد أحدث تطورا نوعياً وكيفياً فى حسابات

وتوجهات الكنيسة، التى اتجهت غربا أكثر فأكثر، بعد رجحان كفة رعيتها الغربية على رعيتها الداخلية الوطنية.. ولقد كان دخولها فى «مجلس الكنائس العالمى»- الذى أقامته المخابرات الأمريكية، إبان الحرب الباردة، لخدمة الهيمنة الأمريكية- بعد أن ظلت هذه الكنيسة رافضة دخوله لسنوات طويلة- كان ذلك إعلانا عن هذا التحول فى التوجهات.. حتى لقد أصبح بعض الغيورين عليها- حتى من أبنائها- يخشون من اهتزاز طابعها الوطنى التاريخى لحساب الغرب والتغريب!..[1]

بل لقد استغل هذا «التوجه نحو الغرب» تعاظم الصحوة الدينية الإسلامية، لإخافة الأقباط من المشروع الحضارى الإسلامى، وتبرير الاحتماء بالعلمانية الغربية والنموذج الغربى فى التقدم.. وذلك بدلا من إدراك حقيقة أن الصحوة الدينية هى ظاهرة عالمية، فى كل الديانات، حتى الديانات الوضعية- من الهندوسية إلى الكنفشيوسية- وأنها قد تعاظمت مع إفلاس النماذج الغربية والتغريبية التى فرضت على العالم، وتمت تجربتها على امتداد

(١) إن حقيقة رجحان كفة «خارج» الكنيسة- غير المصرى- على «داخلها» المصرى، قد أصبحت مسلمة من المسلمات.. حتى أن دفاع البابا شنودة فى قضية عزله -من قبل الدولة- على عهد الرئيس محمد أنور السادات- سنة ١٩٨١م- قد قدم هذه الحقيقة فى دفاعه أمام المحكمة الإدارية العليا -مجلس الدولة- فقال: «إن الرئيس السابق - السادات- لم يلحظ أن المدعى- شنودة- هو بطرك الأقباط ليس فى مصر وحدها، بل فى الحبشة والسودان وأوربا وأمريكا واستراليا ولبنان والعراق وغيرها، وعدد الأقباط فى الخارج أضعاف عددهم فى مصر». انظر نص حيثيات الحكم فى: الدكتور محمد مورو (يا أقباط مصر انتبهوا) ص٢٢٣. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨م.

قرنين فلم تحقق للإنسانية نهضة حقة ولا تقدمًا حقيقياً.. بدلا من ذلك، وبدلا من الإسهام النصرانى فى هذه الصحوة الإسلامية، بمنظومة القيم الإيمانية المشتركة، والسمات المشتركة فى الوطنية والقومية والثقافية الواحدة والحضارة الواحدة، بدلا من التوجه شرقًا، انطلاقًا من حقائق هذه الشركة الحضارية التاريخية والدينية، تم التخويف من الصحوة الدينية الإسلامية -بالتركيز فقط على قسمة الغلو الإسلامى- لتنمية الطائفية، والتوجه نحو الغرب والتغريب!.. فتخلقت المشكلة التى لا مشكلة سواها بين المتوجهين غربًا- حتى ولو كانوا مسلمى الأسماء والآباء- وبين الأمة التى تبحث لنهضتها عن خيار نهضوى نابع من حضارتها وهويتها العربية الإسلامية..

● إلى مراكز «البحث» -فى داخل مصر- تلك التى استقطبت غلاة العلمانيين، وسواقط الماركسيين، والتى تمولها- بسخاء يسيل اللعاب- الدوائر والمؤسسات الأجنبية، لتعد «الملفات» عن ما يسمى باضطهاد الأقباط وهموم الأقباط ومظالم الأقباط.. تلك «الملفات» التى تفتحها وتستخدمها الدوائر المعادية لوحدة مصر فى الخارج.. حتى لقد وصل الأمر بأحد هذه المراكز «البحثية»- مركز ابن خلدون- مع الاعتذار لاسم فقيه الإسلام ابن خلدون!- أن يدعو صاحبه- الدكتور سعد إبراهيم- إلى تنفيذ المخطط الإمبريالى- الصهيونى لتفتيت العالم العربى- أكثر مما فتتته اتفاقية «سيكس- بيكو» سنة ١٩١٦م- فيطالب بإقامة كيانات «فيدرالية»، تحقق «تعددية سياسية»- نعم تعددية سياسية- لكل الأقليات فى الوطن العربى «لأن المجتمعات التى تتسم بالتعددية

الإثنية فى الوقت الحالى، ينبغى أن تكون متعددة من الناحية السياسية أيضًا..»!![1]

● وحتى قانون «الاضطهاد الدينى»- الذى أصدره الكونجرس الأمريكى فى أكتوبر سنة ١٩٩٨م- والذى وضعت تقارير المتابعة المنفذة له مصر- وعددًا من الدول العربية والإسلامية- على قائمة الدول التى تضطهد الأقليات، والمرشحة لعقاب الأمريكان!..

● وأخيرًا- وليس آخرا- صناعة الزعامات الجذابة- «الكاريزمية»- مع الحملات الإعلانية التى تضفى الطابع الطائفى على توترات إجرامية أو مشكلات اجتماعية.. أو تبالغ فى أحداث لا يخلو من مثلها وأكثر منها مجتمع من المجتمعات التى تتعدد فيها الديانات والمذهبيات..

***

وهكذا نجد أنفسنا أمام خيوط عنكبوتية، تبدأ جميعها من الغرب؛ لتعود فتخدم الغرب اللاعب الأول بورقة الأقليات- كل الأقليات، وبصرف النظر عن ديانات هذه الأقليات..

وغنى عن البيان، أن الغرب هنا ليس الإنسان الغربى، ولا العلم الغربى، وإنما هو «المشروع الغربى»، الذى يعلن أن الإسلام هو العدو الذى حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية، والذى يريد عولمة نموذجه

(١) الدكتور سعد الدين إبراهيم (التعددية الإثنية فى الوطن العربى) ص٢١. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.

الحضـارى- من الاقتصاد إلى القـيم- بتهمـيش النماذج الحضارية غـير الغربية..

وغنى عن البيان أيضًا، أن هذا المشروع الغربى لا رابطة بينه وبين المسيحية الشرقيـة- ومنها الأرثوذكسـية المصرية- فهـذه الأرثوذكسية، فضـلا عن أنها جـزء من نسـيجنا الوطـنى والقـومى والحـضارى والثـقـافى والقـيمى، فـإن مسيحية الغرب لا تعترف بمسيحيتها؟!.. وإنما يتخذ الغـرب الاستعمـارى - والصهيونية- منها «ورقة» يلعب بها فى معـركته ضد الاستقلال الحضارى للشرق، واليـقظة القومية لأمه وشعوبه.. فـالإسلام والمسيحية الشرقـية فى خندق وطنى وقـومى وحضـارى واحـد تجاه المشـروع الغـربى- الإمبـريالى الصهيـونى-.. بل إن هذه المسيحيـة الشرقية هى والإسـلام وحدة واحدة فى «النسق الأخـلاقى» و«مـنظومـة القـيم الإيمانيـة».. وهى، فـى هذه المنظومـة القـيمـيـة، على العكس والنقـيض من منظومـة القـيم الغربيـة، التى لم تعـد مسيحية، والتى ذهبت فى الوضعية والمادية والانحلال حداً لا يرضاه أى دين من الأديان، سماوياً كان هذا الدين أو وضعياً!..

ولقد أدرك العقلاء من زعماء النهضة الإسلامية هذه الحقيقة، منذ أن شرع الغـرب يمد حبـال وشبـاك الغواية لاصطيـاد الأقليات المسـيحـية الشرقـية، كجـزء من حربه للشـرق والإسلام.. فقـال عبـد الرحمن الكواكـبى (١٢٧٠- ١٣٢٠هـ- ١٨٥٤-١٩٠٢م) لمسـيحـيى الشـرق: «أليس مطلق العربى أخف اسـتحقاراً لأخيه مـن الغربى؟. هذا الغربى قد أصبح مادياً لا دين له غيـر الكسب، فما تظاهره مع بعضنا بالإخاء

الدينى إلا مخادعة وكذبًا وما دعواه الدين فى الشرق إلا كما يغرد الصياد وراء الشباك!»[1]

وقال ميشيل عفلق (١٣٢٨-١٤٠٩هـ- ١٩١٠-١٨٨٩م): «**إن المسيحيين العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم سوف يعرفون أن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ويحبوها ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شىء فى عروبتهم. فلا يوجد عربى غير مسلم!، فالإسلام هو تاريخنا وهو بطولاتنا، وهو لغتنا، وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون.. إنه الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم.. وبهذا المعنى لا يوجد عربى غير مسلم، إذا كان هذا العربى صادق العروبة، وإذا كان متجردًا من الأهواء.. ولئن كان عجبى شديدًا للمسلم الذى لا يحب العرب، فعجبى أشد للعربى الذى لا يحب الإسلام..**»[2]

فالمسيحية الشرقية جزء من «ذاتنا» الوطنية والقومية والحضارية.. بينما الغرب هو «الآخر»، بالنسبة لنا جميعا، مسلمين ومسيحيين..

***

إن تعداد المسلمين قد قارب ربع البشرية، وليس هناك عاقل يطمع فى إحلال الإسلام محل النصرانية، بإدخال الأقلية النصرانية فى الإسلام..

---

(١) (الأعمال الكاملة) ص٢٠٨. دراسة وتحقيق: الدكتور محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م.

(٢) (الكتابات السياسية الكاملة) جـ٣ ص٣٣، ٢٦٩، جـ٥ ص٦٨ طبعة بغداد سنة ١٩٨٧م، سنة ١٩٨٨م.

فالأصل والقانون، فى الإسلام، هو التعدد فى الشرائع والملل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ [المائدة: ٤٨].

ومن الجنون أن تتصور الأقلية النصرانية إمكانية تفريغ الوطن من المسلمين، الذين يكونون ٩٥٪ من سكانه.. وحرام أن ينخدع البعض بغواية الغرب، التى سبق ومارستها الإمبراطوريات الاستعمارية التى سبقت أمريكا إلى اللعب بورقة الأقليات.. من روسيا القيصرية الأرثوذكسية.. إلى فرنسا الكاثوليكية.. وحتى إنجلترا الإنجيلية.. فلقد طويت صفحات هذه الإمبراطوريات، وذهب عملاؤها إلى مزبلة التاريخ!.. وبقى الإسلام الحضارى صيغة نهضوية لكل شعوب الشرق، التى تستيقظ اليوم متخذة من نموذجه الحضارى الشرقى سبيلها إلى التقدم والنهوض..

فالمشروع الإسلامى الإيمانى هو الضمان لازدهار الإيمان المسيحى فى الحضارة الشرقية.. بينما المشروع الغربى الوضعى والمادى والعلمانى هو مقبرة كل ألوان الإيمان الدينى..

وقديمًا، ومنذ سنة ٧هـ سنة ٦٢٨م قال حاطب بن أبى بلتعة (٣٥ق هـ- ٣٠هـ- ٥٨٦- ٦٥٠م) للمقوقس- عظيم القبط فى مصر- عندما حمل إليه رسالة رسول الإسلام ﷺ! «**إن لك دينًا لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافى به الله فقد ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى**

إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. ولنسا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به[1]..».

ولقد كان حاطب- فى ذلك- يصدر عن منهاج النبوة، الذى تعلم منه قول رسول الله ﷺ، عن المسيح عليه السلام: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة. الأنبياء إخوة، أولاد علات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد. وليس بيننا نبى[2]..».

فحرام أن يفرق الغرب المادى الاستعمارى ما جمعته منظومة القيم الإيمانية الموحدة لأتباع أحمد والمسيح، عليهما السلام.. وما وحدته الثقافة واللغة والوطنية والقومية والحضارة، عبر تاريخنا الطويل.. وخصوصًا عندما نكون جميعًا ركاب سفينة الوطن الواحد، الذى يعيش فينا كما نعيش فيه..

***

إن الوطن هو السفينة التى لا مكان لأى من ركابها خارج حرمها وأمنها وأمانها.. وإذا خرقها الأعداء أو العملاء أو الدهماء غرق جميع من عليها بلا استثناء، وغرقت معهم كل العقائد والمذاهب والمصالح والطموحات.. ولقد علمنا الإسلام منهاج وقاية الأمة من نزق القلة، عندما قال القرآن الكريم: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [الأنفال: ٢٥].. وعندما رسم

(١) ابن عبد الحكم (فتوح مصر وأخبارها) ص٤٦. طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والإمام أحمد.

رسول الله ﷺ، هذا المنهاج فى «حديث السفينة» -الذى رواه النعمان ابن بشير- فقال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم ركبوا سفينة فى البحر، فأصاب بعضهم أسفلها وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فآذوهم، فقالوا: لو خرقنا فى نصيبنا خرقا فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا؟ فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا**[1]»..

وإذا كان الضرب على الأيدى -أيدى الذين يحاولون خرق السفينة- هو شأن القابضين على سلطان الدولة والقائمين على تطبيق الدستور والقانون.. فإن مهمة الفكر هى تمييز الخبيث من الطيب فى عالم الأفكار والتوجهات، وتبيان الحقائق من الأكاذيب فى الدعاوى والادعاءات.. فهذا هو الميثاق الذى أخذه الله على أهل العلم: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ**﴾ [آل عمران: ١٨٧].

إن حرية الوطن رهن بحرية جميع أبنائه، من كل الطبقات والديانات والمذهبيات.. وسيظل العدل منقوصا إذا ما حاق الظلم بأحد من المواطنين.. ولن تتحقق حرية الكاتب والمفكر إذا كان فى وطنه من يرسفون فى الأغلال والأصفاد.. وإذا كان رسول الله ﷺ، ينبئنا -ويحذرنا- من أن ذمة الله بريئة من أى جماعة -صغيرة أو كبيرة- تبيت شبعى وفيهم امرؤ واحد جائع.. «**أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى**»[2].. فما بال الذين يرضون بأن يقع

---

(١) رواه البخارى والترمذى والإمام أحمد.

(٢) رواه الإمام أحمد.

الظلم على جماعة من الجماعات، سواء أكانت أقلية تظلمها الأغلبية، أم أغلبية تستعدى عليها الأقلية الظلمة والطغاة؟!..

إن الإسلام الذى يعلمنا وجوب العدل حتى مع من نكره من الأعداء: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ [المائدة: ٨].. إن هذا الإسلام هو الذى حرر النصرانية المصرية وكنيستها، فأنقذهما من الإبادة الرومانية المحققة، حتى لنستطيع أن نقول بأعلى الأصوات: إن النصرانية المصرية، ومعها كنائسها ومؤسساتها ورعيتها، هى هبة الإسلام.

وإذا كان الإسلام قد جاء إلى مصر من شبه الجزيرة العربية، فإن النصرانية قد وفدت إلى مصر من فلسطين.. والأقدم منهما معا -في مصر- هى عبادة العجل أبيس!!..

وإذا كانت «الدولة» الإسلامية قد جاءت إلى مصر مع الفتح الإسلامى، فهى قد حلت محل «الدولة» الرومانية الاستعمارية، التى قهرت أهل مصر ونصرانيتهم، ولم تحل «الدولة» الإسلامية محل دولة نصرانية مصرية.. فليس فى النصرانية «دولة».. ومصر لم يحكمها نصرانى من أهلها عبر التاريخ!.. وإنما ظلت النصرانية المصرية عقيدة مطاردة وهاربة حتى جاء الإسلام ودولته فأمنت لأول مرة فى تاريخها!..

وإذا كانت العربية قد وفدت إلى مصر مع الفتح الإسلامى، فلقد حلت

-باختيار أهلها- محل اللغة التى قهرها الاستعمار الرومانى حتى كتبت بالحروف اليونانية..

وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد وفدت إلى مصر قبل أربعة عشر قرنا، فلقد حلت محل القانون الرومانى -القانون الوافد للدولة الغازية المستعمرة.. قانون «جستنيان» (٥٢٧-٥٦٥م)- الذى أحرق فى الإسكندرية وحدها -فى ليلة واحدة- ٢٠٠,٠٠٠ من نصارى مصر.. بينما هرب الناجون من الحرق إلى الصحراء!!.. ولم تحل الشريعة الإسلامية محل قانون نصرانى مصرى- فليس فى النصرانية قانون للدولة والمدنية والاجتماع-.. وفقه الشافعى (١٥٠-٢٠٤هـ- ٧٦٧-٨٢٠م) المصرى أولى بمصر وهى أولى به من فقه نابليون (١٧٦٩-١٨٢١م).

ولأن الإسلام قد حرر النصرانية المصرية، ووضع عن أجدادنا أقباط مصر الأغلال التى كبلتهم وقهرت ثقافتهم ولغتهم وعقيدتهم وحضارتهم لعدة قرون -قرابة الألف عام من فتح الإسكندر الأكبر (٣٥٦-٤٢٤ق.م) فى القرن الرابع قبل الميلاد -إلى الفتح الإسلامى- فى القرن السابع للميلاد- . . فلقد اندمجت مصر فى الإسلام والعربية كما لم يندمج مجتمع من المجتمعات التى دخلت الإسلام. . فدخلت أغلبية أهلها فى الإسلام: العقيدة والشريعة والقيم والفقه واللغة والثقافة والحضارة. . ودخلت الأقلية التى بقيت على نصرانيتها فى الإسلام: القيم والثقافة واللغة والحضارة والقانون، فكانت «السبيكة المصرية» الواحدة، التى أسهمت فى الحضارة الإسلامية، بعد أن استوعبت

المواريث الحضارية الضاربة فى عمق أعماق التاريخ.. فغدت هذه الحضارة الإسلامية -بعبارة الفقيه القانونى والقاضى العادل الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا (١٣١٣-١٣٩١هـ-١٨٩٥-١٩٧١م)- «**الميراث الحلال للمسلمين والمسيحيين المقيمين فى الشرق، فتاريخ الجميع مشترك، والكل تضافروا على إيجاد هذه المدنية**[١]..».

فحرام على ورثة هذا الميراث العظيم والنفيس والفريد، أن يفرطوا فيه تفريط السفهاء الذين لا يعرفون قيمة ونفاسة وعظمة وفرادة ما أورثهم الآباء والأجداد..

وإذا كانت مهمة الفكر هى إيقاظ العقول لتأليف القلوب -بالحقائق لا بالأكاذيب... فليس كصراحة الحقائق سبيل لإيقاظ العقول.. وليس كالعقول اليقظة سبيل لتأليف القلوب المخلصة لسفينة الوطن، الذى يعيش فينا كما نعيش فيه..

●●●

(١) (عبد الرزاق السنهورى من خلال أوراقه الشخصية) ص١١٨، ١٤٨ إعداد: الدكتورة نادية السنهورى، دكتور توفيق الشاوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.